

المحاضرة الأولى

أيها السادة

في ضواحي سنتريس ، حيث يحلو السمّر ، في ليالى القمر ،
وعلى شاطئ النيل هناك ، حيث النجم والشجر ، والماء والزهر :
في تلك البقعة المشبهة الأزاهر ، المشتبكة الجداول ، حيث السواقي
الشاديات ، والطيور الصادحات ، وتحت تلك الشجرة المعطفة الغصون ،
المهدلة الشعور ، حيث أجلس في الضحى والظهيرة ، مع الصبح
والعشيرة ، بجانب ذلك الطريق الجميل : حيث تعدو السيارات
الفاخرة ، من القاهرة إلى الاسكندرية ومن الاسكندرية إلى
القاهرة ، وحيث يمشى فضلاء سنتريس في الأصائل والعشيات ،
جماعات جماعات ، يتناشدون الأشعار ، ويتناقلون الأخبار .

هناك : حيث أستظرف الجالوس مع أولئك الأجداد ، شجعان
البلاد . أولئك الذين لم تحالط نفوسهم أوضاع الحضارة ، ولا سموم
المدنية ، ولم تقارق طباعهم أخلاق البداوة ، ولا رسوم العصبية ،
أولئك الذين أجلس إليهم فيعود إلى ضلالى القديم ، وعُدوانى

الموروث ، فأتمدح بأجدادى الشجعان ، وآبائى الأبطال ، وأذكر
ماشتوا من الغارات ، في العصور الخاليات

هناك حيث أفضى شطراً من الصيف ، وجزءاً من الخريف ،
بين خطاب أكتبه ، أو جواب أقرؤه ، وحيب أساهره ، أو أنيس
أسامره ، وعهد أحنُّ إليه ، أو عيش أبكى عليه

ليالى النيل واللذات ذاهبةٌ^١ وجدى عايكن أشجاني فأضناني
لويرجع الدهر لى منكنَّ واحدةً في سنتريسَ ويُدنى بعض خلانى
إذا تبيئن دهرى كيف يرحمنى من ظلم همي ومن عدوان أحزاني^(١)

هناك ، هناك جلست في بعض الأصائل مع الصديق الحميم :
الشيخ حسين الحكيم^(٢) يتحدثني وأحدثه عن الشاعر الغزل :
عمر بن أبى ربيعة المخزومي

(١) هذه الآيات من قصيدة للمؤلف

(٢) ولد الشيخ حسين الحكيم في سنتريس ثم سكن القاهرة والتحق بمدرسة عثمان باشا
ماهر فمدرسة القضاء الشرعى ، ثم نال منها شهادة العالمية ، وعين مدرساً للغة العربية
بمدارس الجمعية الخيرية الاسلامية ، فمضى سنة في المدرسة الواصفية ببور سعيد ، وبضعة
أشهر في مدرسة دسوق الثانوية ، ثم قضى نخبه هناك يوم الجمعة ٩ ربيع الأول سنة ١٣٣٧

١٣ ديسمبر سنة ١٩١٨ ثم نقل الى القاهرة مساء السبت فدفن بها مساء الأحد
وكان رحمه الله آية الآيات في حسن الخلق ، وصباحة الوجه ، وحلاوة
الحديث ، وأصالة الرأي ، وكان لا يعدله عندي غير شقيقى سيد مبارك الذى فقدته

وكذلك يميل الشباب الى شعر الشباب ، كما يرغب الكهول
 في أدب الكهول . فان للشيبية شعراً ، والكهولة شعراً . ولأدب
 الصبا في استطرافه أشياع وأتباع ، كما لحكمة الشيخوخة في رزائنها
 أنصار وأعوان

فلما قضينا بعض ما رُب الشباب ، من الجرى في ميدان الخيال
 الساحر ، وشرحنا بعض أهوائنا وميولنا في شخص ابن أبي ربيعة ،
 وكانت الشمس قد جنحت الى الغروب ، ونسبات الأصيل قد مالت
 الى الهدوء ، وبدت لنا سنتريس وكأنها بَسْمَةٌ في فم الكون يضمورها
 اذا جن الظلام ، فما تتبين منها غير المصاييح الزاهرة ، في المغاني
 الساهرة ، والأندية السامرة ، لم نجد بداً من العودة اليها ومساهرة
 السامرين فيها

ولأمر ما أراد صديقي الشيخ حسين أن يذهب الى منزله في شمال
 البلدة . وأردت العودة الى منزلي في جنوبها الشرقي . بيد أننا لم نكد
 نبتعد كثيراً حتى سمعته يقول : اذا عدت غداً فأحضر معك ديوان ابن

معه في أسبوع واحد . وكان موتهما معا بالجمي الاسبانية لارد الله لها غربة ولا قدر
 لها رجعة ، وكان أخي سيد من أقوى الفتيان بأساً وامضاهم عزيمة ولو عاش اضربت
 بشجائته الامثال

أبي ربيعة . فقلت له مازحا : ومن ابن أبي ربيعة ؟ فأجاب مسرعا :
فقي قريش وشاعرها

فأعجبت بجوابه ، وسررت من بدهائه ، إذ علمت ان ابن أبي ربيعة
مما درسنا شعره ، وحللتنا شخصيته ، فلن نجد إلا فقي قريش وشاعرها
وكذلك أريد أن أحدثكم عنه من هذه الناحية : فأشرح لكم فتوته
وشعره ، وأوجه ونسبه



أيها السادة

ان الغرض من هذه المحاضرات إنما هو البحث العلمي قبل كل
شيء ، والوصول الى الحقيقة من أى سبيل ، وهنا ألفت نظركم الى
ان العلم لا يكون دائما جافا ، بل قد يكون أحلى ، من المنى ، وأشهى من
تغور الحسان ، فإنك اذا احتجت الى شيء من الزهادة فى العيش ،
والرغبة عن الحياة ، لتفهم الجزء الثالث من كتاب الاحياء للقرظالى ،
والى قسم من الارتياب ، لتفهم حديث الملحد نيموكليس مع الراهب
بافنيس ، للفيلسوف الأتولى فرانس ، فانك أيضا فى حاجة الى شيء من
الخلاعة ، ونصيب من الجون ، لتفهم الشاعر الفقى عمر بن أبى ربيعة

وكذلك أدعوكم الى استخدام هوراكم : قديمه وحديثه ، واستنهاض
صبايتكم : طريفها وتليدها ، حتى تفهموا هذا الشاعر الغزل ، وتدرکوا
غرض هذا الماجن الخليع

ولن تكونوا اذا فعلتم ذلك الا باحثين عن الحقيقة ، سائرين
اليها عن طريق العلم ، فان أنواع العلوم تتطلب ألواناً من النفوس ،
بل الفن الواحد يتطلب أرواحاً مختلفة ، لفهم أدواره المختلفة ، فليس
الذي يفهم نسيب الأمرء ويضرب به ، لأنه يساكن من يهوى ،
ويختلف الى من يحب ، بقادر على أن يفهم نسيب المشردين في الآفاق :
من أهدرت دماؤهم ، وصودرت ميولهم
وليس الذي يعجب بقول كثير :

يكانها للغيران شتمى وما بها هوانى ولكن للمليك استذلت
هنيئاً مريئاً غير داء مخامر لعزة من أعراضنا ما استجالت
فلا يحسب الواشون ان صبايتى بعزة كانت غمرة فتجت^(١)
بمستطيع أن يعجب بقول الآخر :

صفا ودليلي ما صفا ثم لم نطع عدواً ولم نسمع به قيل صاحب

(١) هذه الايات من نائية كثير وهي غرة من غرد الشعر العربي يجدها القاري
كاملة في كتاب مدامع العشاق

فلما تولى ود ليلي جانباً وقومٍ تولينا لقومٍ وجانب
 وكلُّ خليلٍ بعد ليلي يخافى من الغدر أو يرضى بوَدِّ مقارب
 فاذا رأيتموني أكثر من الأمثلة ، وأغنى بانشاد الشعر ، فليس
 ذلك لا لمتاع افتدتكم ، وإشباع أسماعكم ، فحسب ، بل لأثبت في أذهانكم
 وأمكن من قلوبكم صورة ذلك الشاعر الشاب ، الذي قضت أيامه بأن
 لا تمتد إليه أيدي الرسامين والمصورين ، فلم يبق لنا من معالم جماله ، ومعاهد
 شبابه ، إلا ما تركه في شعره ، وخلاؤه في نسبه ، والشعر صورة الشعراء

*
*
*

وبعد فهل كان ابن أبي ربيعة محباً صادق الحب ، متين الصبابة ؟ أم
 كان فتىً مفروراً بشبابه ، مفتونا بجماله ، لا يأبه بالحب ، ولا يخضع
 للفرام ؟ وإذا لم يكن عاشقاً ولا محباً ، فكيف أجاد النسيب ، وأبدع
 في التشبيب ، وما هي ميزة شعره ، التي بدت بها اخوانه ، وفاق بها
 أقرانه ؟ ؟

فأمامنا إذاً مسألتان : الأولى حقيقة حبه ، والثانية حقيقة شعره ،
 وسنوفى الكلام عن أولاهما في هذه المحاضرة ، وزجىء الكلام عن
 أخراهما إلى المحاضرتين القادمتين ، إن شاء الله

أما حبه ، فأنا أتهمه فيه ، وأنكره عليه ، وذلك لأمر :
 أولا لأنه حضري لبدوى ، وقلماً يصدق للحضريين حب ،
 أو تبقى لهم صباية : إذ يرون من متهات الظروف ، ومكاملات الأدب ،
 أن يحيا الرجل نمين بأكية ، وقلب خفاق : فلا يزالون يتلمسون الهوى
 ويتحسسون الصباية ، حتى تناح لهم أسبابها ، وتساق إليهم همومها
 وأنا الذي اجتلب المنية طرفه ، فمن المطالب والقتيل القاتل
 إذا رهب البدوى الحب ، فقال يتخوف عواقبه ، ويتهيب
 جانبه :

فيارب خذلى رحمةً من فؤادها وحلٌ بين عينيها وبين فؤادى
 رأيت الحضري شرها طامعا ، يرد لو حشر الله إليه أهل الجمال أجمع
 فقال من الصباية أقصاها ، ومن المحبة أساها ، وينشد قول ابن الأحنف
 إن الهوى لو كان يدُّ فذفيه حكى أو قضائى
 لطابتُه وجمتهُ من كل أرض أو سماء
 فقسمتهُ ينى وينى ن حبيب نفسى بالسواء
 فتميش ما عشنا على محض المودة والصفاء
 حتى إذا متنا جميعاً ما والامور الى فناء
 مات الهوى من بعدنا أو عاش فى أهل الوفاء

كأن حتماً على البدوى أن يتخذ الى القناعة في كل شيء ، وعلى الحضرى أن يعرف بالجشع في كل شيء .

ومن هنا تعرف كيف غابت العفة على أولئك ، وأطرق الفسق الى هؤلاء ، فاذا قلت لالبدوى انشدنى شيئاً من الشعر ، فقاما يروقه غير قول جحدر وقد زج في السجن

أليس الليل يجمع أم عمرو . وإيانا فذاك لنا ندان

نعم وأرى الهلال كما راءُ ويعلموها النهار كما علانى

وإذا استشهدت الحضرى شيئاً من مختاره في الذيب ، فقاما يشدك

غير قول ابن الفارض

وإذا اكتفى غيرى بطيف خياله فانا الذى بوصاله لا أكتفى

وذلك لما يختلف الفريقان في فهم معنى السمادة في الحب ، فهى

عند الاعراب لاتعدو مسامرة الامانى ، ومسامرة الاحبة ، وعند أهل

الحضر : كل ما أمتع العين وال... الى غير ذلك مما يشتهون

وإذا كان المال - وهو من معبودات الحضريين - يطلب بمضيه للإدخار

وبعضه للاتفاق ، فان الجمال عندم كذلك - إلا من عصم الله - فهم

تُعجبون بالعيون الكحيلة ، والشعور المرسله ، ليعتموا عيونهم بالنظر

لها وأفئدتهم بالتفكير فيها ، ثم لا تسأل بعد ذلك عن رأيهم في بقية

المحاسن ، فعهدي بهم يرجون الخد للتعجيل ، والرقيق للارتشاف ، وهكذا حتى يصل بهم الطمع : الى ما ترغب النفس عن ذكره ، والتأمل في جدواه .

الحسن عند الحضريين ، أشبه شيء بجنة وردها جني ، وزهرها ندي ، يدخاها الزائر : فلا يعجب منها بزهرة ذات بهجة ، أو وردة ذات نضرة ، إلا دعتة أخرى أنضر منها وأصبح .

فاذا ذهب اليها يجتلي حسنها ، ويتأمل شكلها ، لفتت نظره ثالثة ورابعة ، حتى يتصفح الحديقة بأكملها ، ويقتلها نظراً وشما ، والمرء يكلف بالحسن ، ويُعزم بالجمال .

فاذا عاد الى قلبه ، ورجع الى نفسه ، ليعرف أيها أعلق بخاطره ، وأملك لوجدانه ، حسبها هذه بل تلك ، ثم يختلط عليه الأمر ، فلا يدري أيها أحق بالرعاية ، وأولى بالاحتفاظ : فينصرف وقلبه مسرور من البستان في جملته ، غير مغرم بزهرة معينة من زهوره الحسنان

وكذلك يمشي الحضري في متنزهات الحواضر ، فيرى من شتى الألوان في الحسن ، ومختلف الاشكال في الملاحظة ، ما يملأ عينه ، ويبهز قلبه ، ثم يأوى الى بيته خلياً من الهوى بريئاً من الصباية ، كأن لم يسمع وسواس الحلي ، ولم ير لألاء الجبين .

وهب أن بين أولئك الفاتنات ، من غابت على قلبه ، وأستوتت
على لبه ، أتراد يسلم في أيامه البواقى ، من غادة أماع شكلا ، وأحلى
دلا ، فتملك من بعدها قلبه ، وتنفرد من دونها بهواه ، وهو الحسن
تبوع ؟

ألا إن الحضرى فى حبه كمد من الحجر . يُصرع كل يوم مرة :
فينسى بكاسه الأخرى كاسه الأولى

والمرء ما دام ذا عين يتلقبها فى عين الغيد موقوف على الخطر
ولقد ذكروا ان كثيراً مشت أمامه امرأذ ظريفة المشية ، فتبعها
عينه ، فالتفتت اليه ، فعرض عليها حبه ، فقالت : كيف ذلك وقد ضاع
شرك فى عزة ؟ فقال : يا سيدتى ! قد كان ذلك تصنعاً ورياء . ولئن
أبجتى حبك ، ومنحتنى حسنك ، لأسيرن فى ذكرك الشعر ، ولأضربن
بحسبك الأمثال : فكشفت عن وجهها فأذا هى عزة . ثم قالت له :
حسبك يا غادر ! فبهت كثير وانصرف : وهو خزيان نادم !

وكذلك كان ابن أبى ربيعة : فما قصر نفسه على امرأة ، ولا وقف
حبه على فتاة . وإنما كان يتماس الجمال بين مناسك الحج ، ويتناقط
الحسن فى مسارح الأطباء : فيغشى الرياض الزاهرة ، عله يظفر بزهرة
لا كالزهور ، ويقصد الأندية السامرة ، عساه يسمع حديثاً عن بعض

الآنسات الحور ، بل ربما صدَّ عن تجزيه بالحلب حباً ، ورام من تجزيه
بالقرب الصدود .

ولقد مر به فتیان وهو بالحجر يصلی ، بعد أن صوّح زهره ،
وتأوّد غصنه ، وبعد أن سَمَّ الغواية والفساد ، وجنح الى الهداية
والرشاد ، وبعد أن خَلَّى الغرام جانباً وأقبل على نفسه يحاسبها ، وعلى ربه
يستغفره ، فلم يكده يقضى صلاته حتى هرع إليهما يتعرف خبرهما
ويعرف أهلهما . فلما عرفهما وكانا أخوين قال :

يا بُنَى أَخِي : لقد كنت موكلاً بالجمال أتبعه ، واني رأيتكما
فراقني حسنكما وجمالكما فاستمتعا بشبابكما قبل أن تندما عليه !
وليس بمجيب أيها السادة أن لا يصدق في حبه من يقول :

سلامٌ عليها ما أحببت سلامنا فان كرهته فالسلام على الأخرى
ولا تزيد بهذه الكلمة الغضب من عواطف الحصريين ولا الطعن
في كرامتهم ، فقد يكون من بينهم من هو أصدق حبا ، وأتقى عرضاً ،
ولكننا نرى البشره في الحب ، والطمع في الصباية ، من علامّ التلون ،
ودلائل التقلب ^(١)

(١) يرى الاستاذ الدكتور احمد ضيف ان العلم والفلسفة قد يهدبان النفس ، ويلطفان
الطبع . فلا تكون الحضارة من أسباب الفسق ، ولا موجبات الفجور ، ثم لا يكون

ليس في القلب موضع لحبيب . بين ولا أحدث الأمور اثنان
فكما العقل واحدٌ ليس يدري خالقاً غير واحدٍ رحمن
فكذا القلب واحدٌ ليس يهوى غير فرد مباعد أو مدان
وكذا الدين واحدٌ مستقيمٌ وكفورٌ من عنده دينان
هو في شرعة المودة ذو شر لِكِ بعيدٌ عن صحة الإيمان
وكذلك كان الحضريون مكذِّبين في عشقهم ، متهمين في حبهم

*
* *

ثانياً — كثر غروره بشبابه ، وفتونه بجماله ، وتحدثه بحب النساء
له ، وإقبالهن عليه . وقاما يكون المعشوق عاشقا ، والمحبوب محبا ،
وقد رأيت في شعره عزة المعشوق ، لاذلة العاشق . وتيه المحبوب ،
لاخضوع المحب

فتارة يذكر أنه أمنية محبوبته ، وأمل معشوقته ، كقوله :

البدوي أصدق من الحضري في الحب ، ولا أثبت منه في الغرام
وهي فكرة جميلة غير أنها لا تنطبق على ابن أبي ربيعة وأمثلة من الحضريين
فان كثيرا منهم يشاركون الفلاسفة في سعة العلم ، وبعد النظر ، ثم لا يرون رأيهم في التقشف
والزهد : واليهما يرجع الفضل في كبح الهوى وزجر النفس .
على أن المذاهب الفلسفية لا تدعو كلها الى الطهر ، ولا ترغب في العفاف
ولا ينتفع المرء بأحسنها أثراً ما لم يصبر من أربابها ، والداعين اليها ، في سره وجهره
وشبابه ، ومشيبه ، والا فلماذا تجمع الحواضر بين العلم والفساد ؟

الميم بزيباب إن الركب قد أفدا
قد حلفت ليلة الصّورين جاهدةً
قلّ الثواء لئن كان الرحيل غداً^(١)
وما على المرء إلا الحلف مجتهداً^(٢)
لأختها ولأخرى من مناصفها^(٣)
لقد وجدت به فوق الذي وجدنا^(٣)
لو جمع الناس ثم اختير صفوتهم
شخصاً من الناس لم أعدل به أحداً

وقوله

وانها حلفت بالله جاهدةً
ما وافق النفس من شيء عسر به
وما أهلّ له الحجاج واعتصروا
وأعجب العين إلا فوقه عمر
وأخرى يتمدح بعينها عليه ، وتوددها إليه ، كقوله
فما أنس من ود تقادم عهده
عشيمة قالت والدموع بعينها
لقد كان في إقراضك الود غير نا
فهذا الذي في غير ذنب عامته
هل الصرم إلا مسلمي إن صرمتي
فلمست بناس ما هدت قدمي نعلي
هنيئاً لقب عنك لم يسله مُسل
وفعلك ناه لي لو أن معي عقلي
صنيعك بي حتى كأنك ذود حل^(٤)
إلى سقم ما عشت أو بالغ قمتي^(٥)

(١) أفد الركب : أسرع (٢) الصوران : متى الصور وهو موضع بالقيع (٣) المناصف
الخدم جمع منصف ومنصفة ، وهي هنا الوصائف اللاتي يقمن بخدمة الحسان

(٤) الدجل : النار . أو هو العداوة والحقد

(٥) ولقد ذكروا أن كثيراً عاب ابن أبي ربيعة في قوله

قالت لرب لها تحبها لنفسدن الطواف في عمر

وحيثما يفخر بدموعها المرفضة لبعده ، المسهاة لهجرده ، كقوله
تقول وعينها تدرى دموعاً لها نسق على الخدين تجرى
ألمت أقرّ من يمشى لعيني وأنت الهم في الدنيا وذكري
أمن سخط على صدقت عنى حمات جنازتي وشهدت قبري
وآخر يصف نفسه بالجمال اليوسفي فيقول
قلن هذا الذي نلومك فيه لا تحجى من قولنا بقتيل

قومي تصدى له ليصبرنا ثم اغمزيه يا أخت في خفر
قالت لها قد غمزته فأني ثم اسبطرت تسمى على أنزي
وقال له : إنما تنسب بنفسك ، ولو أنك وصفت بهذا الشعر هرة أهلك . لكنت
قبيحت وقلت الهجر ، إنما توصف الحرة بالحياء والاباء ، والبخل والامتاع . كما قال
هذا ، وأشار الى الاحوض

أدور ولولا أن أرى أم جعفر بأبياتكم ما درت حيث أدور
وما كنت زواراً ولكن ذالهُوى إذا لم يزر لابد أن سيزور
لقد منعت معروفها أم جعفر وإني الى معروفها لفقير
وقد لاحظ عليه ذلك ابن أبي عتيق أيضا في قوله

بينما ينعتني أبصرتنى دون قيد الميل يعدو بي الاغر
قالت الكبرى أما تعرفنه قالت الوسطى بلى هذا عمر
قالت الصغرى وقد تيمتها قد عرفناه وهل يخفى القمر ؟

وعندى أن هذا خطأ من كثير وضلال من ابن أبي عتيق . وليس لابن أبي ربيعة في
صباحته ان يتبع رأى كثير في دمامته فان لجمال الشاعر أثراً في نسيبه ونصيبياً من تشبيهه
وقد أوضحت ذلك في المحاضرة الثالثة فانظروا هناك

فصليبه فلن تلامي عليه فهو أهل الصفاء والتنويل
وانه ليغرب أحياناً في الصلّف ، ويؤمن في التيه : فيقول مثلاً :
الت علي رقبته يوماً لجارتها ما تأمرين ؟ فان القلب قد تبيلاً^(١)
هل لي اليوم من أخت مواسية متكن أشكو إليها بعض ما عملاً
راجعتها حصان غير فاحشة برجع قول ولب لم يكن خطلاً^(٢)
! تذكرى حبه حتى أراجه انى سأ كفيكده ان لم أمت عجلاً
أقنى حياءك في ستر وفي كرم فلست أول أنى علققت رجلاً^(٣)
سدت بعاداً وقالت لآتى معها بالله لوميه فى بعض الذى فعلاً
حدثيه بما حدثت واستمعى ماذا يقول ولا تعي به جدلاً
تى يرى ان ما قال الوشاة له فينا لديه الينا كله نقلاً
عرفيه به كالهزل واحتفظى فى غير معتبة ان تغضبى الرجال
ان عهدى به والله يحفظه وان آتى الذاب ممن يكره العذلا
عندنا اغتیب أو نيلت تقيصته ما أب مغتابه من عندنا جدلاً
ويقول أيضاً فى الحديث عن بعض الواجدات به :

(١) تيل القلب : اسقمه الحب (٢) الحصان والحاصن المرأة العفيفة ، ونساء حواصن

(٣) اقنى حياءك : الزميه

(٥٠)

لقد حَلَيْتُكَ العَيْنِ أُولَ نَظَرٍ وَأَعْطَيْتَ مِنِّي يَا بَنَ عَمِّ قَبُولًا
فَأَصْبَحْتَ هَمًّا لِلْفُؤَادِ وَمُنِيَّةً وَظِلًّا مِنَ النُّعْمِيِّ عَلِيًّا ظَلِيلًا
فهذا كله دليل على أن ابن أبي ربيعة كان مشوقاً لا عاشقاً،
ومطلوباً لا طالباً، وأن النساء كانت تقع عليه كما يقع النحل على الزهر،
والطير على الشجر



ثالثاً — كثرت دعوى ابن أبي ربيعة توحيد حبه، وإفراد غرامه،

فيقول في ليلى

لقد أرسلت في السر ليلى تلومني وتزعمني ذا مائة طرفاً جلداً^(١)
تقول لقد أخلفتنا ما وعدتنا ووالله ما أخلفتها طائعاً وعدا
فقلت مروءاً للرسول الذي أتى تراد لك الويلات من أمرها جدا
إذا جئتها فافر السلام وقل لها

ذرى الجور ليلى واسلكى منهجاً قصداً
تعدنين ذنباً أنت ليلى جنيتيه على ولا أحصى ذنوبكم عدا
أفى غيبتى عنكم ليالى مرضتها تزيدننى ليلى على مرضى خهداً

(١) الطرف: هو المنقلب الذى لا يثبت على امرأة ولا صاحب

فلا تحسبي أني تمكثُ عنكمُ ونفسي ترى من مكثها عنكمُ بُدا
 ألا فاعلمي أظلي أشد صباية وأصدق عند الذين من غيرنا عهدا
 غداً يكفر الباكون منا ومنكمُ وتزداد داري من دياركمُ بُعدا
 فان تصرميني لا أرى الدهرَ قرّةً لعيني ولا ألقى سروراً ولا سعداً
 فان شئت حرمت النساء سواكمُ
 وإن شئت لم أطعم نقاخاً ولا برّداً^(١)

ويقول في الرباب

رُسلت تعتب الرباب وقالت قد أتانا ما قلت في الانشاد
 نلت لا تغضبي فداؤك نفسي ثم أهلي وطارفي وتلاذي
 إن تعودى تكن تهامة داري وبنجاءٍ إذا حلت معادي
 أنت أهوى إلي من سائر النا رس ذريتي من كثرة التعداد

ويقول في عبدة :

عبدة ما ينسى مودتك القابُ ولا هو يُساليه رخالة ولا كربُ
 لا قول واش كاشح ذي عداوةٍ ولا بُعد دار إن نأيت ولا قربُ
 ما ذاك من نعيّ لديك أصحابها ولكن حباً ما يقاربه حبُ
 إن تقبلي يا عبدة توبة تائب يتب ثم لا يوجد له أبداً ذنبُ

(١) النقاخ على وزن غراب الماء العذب

أَذَلُّ لَكُمْ يَاعْبُدُ فِيهَا هَوَيْتُمْ وَإِنِّي إِذَا مَارَاهُنِي غَيْرَكُمْ صَعْبُ
 وَأَعَذَلُ نَفْسِي فِي الْهَوَى فْتَعْتَقِي وَيَأْصِرُنِي قَلْبُ بِكُمْ كَأَنَّكَ صَبُ
 وَفِي الصَّبْرِ عَمَّنْ لَا يُوَاثِيكَ رَاحَةٌ وَلَكِنَّهُ لَا صَبْرَ عِنْدِي وَلَا أَبُ
 وَعَبْدَةٌ بِيضَاءِ الْمَخَاجِرِ طِفْلَةٌ مَنَعْمَةٌ تَصْبِي الْحَايِمِ وَلَا تَصْبُو
 وَلَسْتُ بِنَاسٍ يَوْمَ قَالَتْ لِأَرْبَعِ نَوَاعِمِ عُرِّي كَلْبَنَ لَهَا تَرِبُ
 أَلَا لَيْتَ شَعْرِي فِيمَ كَانَ صَدُودُهُ أَعَلَّقْتُ أُخْرَى أُمَّ عَلِيٍّ بِهِ عَتَبُ
 وَيَقُولُ فِي زَيْنَبٍ (١) :

أَحَدَّتْ نَفْسِي وَالْأَحَادِيثُ جُمَّةٌ وَأَكْبَرُ هَمِّي وَالْأَحَادِيثُ زَيْنَبُ
 إِذَا طَلَعَتْ شَمْسُ النَّهَارِ ذَكَرْتُهَا وَأُحَدِّثُ ذَكَرَ إِذَا الشَّمْسُ تَغْرَبُ

(١) هي زينب بنت موسى الجهمية . وكان سبب تشيبيه بها أن ابن أبي عتيق ذكرها عنده يوماً فأطراها ، ووصف من عقلها وأدبها وجهالها ما شغل قابِ عمر ، وأماله إليها فقال فيها الشعر وشبب بها . فلما بلغ ذلك ابن أبي عتيق لأمه وسخط عليه . وقال له : أتقول الشعر في ابنة عمي ؟ فقال ابن أبي ربيعة وقد عطف عليه المساءة

لَا تَلْعَنِي عَتِيقُ حَسْبِي الَّذِي بِي أَنْ بِي يَاعْتِيقُ مَا قَدِ كَفَانِي
 لَا تَلْعَنِي وَأَنْتِ زَيْنَبُهَا لِي أَنْتِ مِثْلُ الشَّيْطَانِ لِلْإِنْسَانِ
 لَوْ بَعِينِيكَ يَاعْتِيقُ نَظَرْنَا لَيْلَةُ السَّفْحِ قَرَّتِ الْعَيْنَانِ
 وَقَدْ زَعَمَ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ أَنَّهُ نَسِيَ مِنْ أَجْلِهَا النَّسَاءَ إِذْ يَقُولُ
 لَمْ تَدْعِ لِلنِّسَاءِ عِنْدِي نَصِيْبًا غَيْرَ مَا قَلْتِ مَا زَحَا بِلِسَانِي
 وَقَلِي قَلْبِي لِلنِّسَاءِ سِوَاهَا بَعْدَ مَا كَانَ مَغْرَمًا بِالْغَوَانِي

ويقول في أسماء

لم يحب القلب شيئاً مثل حبكم ولم تر العين شيئاً بعدكم حسناً
ما إن نبألى إذا ما الله قريبكم

من كان شط من الاحباب أوقظنا (١)

فإن نأيتم أصاب القلب نأيتكم وإن دنت داركم كنتم لنا سكناً
إن تبخلى لا يسلى القلب بخلكم وإن تجودى فقد عميتى زمناً
ويقول في هند:

ولقد قلت إذ تطاول هجرى رب لا صبر لي على هجر هند
رب قد شقنى وأوهن عظمى وبرانى وزادنى فوق جهدى
ليس حبي لها بيدعة أمرى قد أحب الرجال قبلى وبعدى
جعل الله من أحب سواكم من جميع الأنام نفسك يفدى
ويقول في التّوار:

لأبألى إذا النوى قربتكم فدنوتم من حلّ أو من سارا
والليالى إذا نأيت طولاً وأراها إذا دنوت قصارا

ويقول في عمرة

حدى نبي أود كلفت بها حلت بلا ترقة لنا وثرا

(١) شط: يمد — قطن: أقام

والله ما أحببت حبيكم لا ثيباً مخلقت ولا بكرراً
وأظهر من كل ما تقدم قوله في عثمة
ماخذت عهدك يا عثم ولا هفا قلمي الى وصل لغيرك فاعلمى
ولا يمكن أيها السادة أن تكون كل هذه الدعاوى صحيحة . فإن
كذب بعضها كان دليلاً على كذب البواقي ، فهو إذاً محتمل ما هو
يقسم لكل غانية يمينا . والفوائى سريعة التصديق ^(١)

(١) قد وافقنا على هذا الرأي كثير من شيوخ الادب ، وأساتذة البيان ، وفي مقدمتهم
الاستاذ الشيخ مصطفى القاياتى والاستاذ الدكتور احمد ضيف وخالفنا في ذلك الاستاذ
الشيخ عبد الوهاب النجار : فهو يرى أن تعدد المشوقات لا يدل على الكذب في
الحب ، فقد يخلص الحب في يومه إلى إحدى الغائبات ، ثم يصفى غيرها الود في
الغد ، ولا يكون كاذباً في حبه الاول ، ولا متهماً في وده الثاني . بل قد يفتى في حبه
لبعض الفوائى ثم يصرف عنها ثم يعود إليها ، كما قيل :

هجرتك حتى قيل لا يعرف الهوى وزرتك حتى قيل ليس له صبر

ولكن ألا يرى فضيلة الاستاذ الشيخ النجار أن هذا من ابن أبي ربيعة وأمثاله
تقلب في الحب ، وتلون في الود ، وأنه إن لم يكن كل الكذب فهو بعض الكذب ؟
أبعد وفياً من قلبه كل يوم في حب جديد . أو يحسب صادقاً من لم يكن ذا وفاء ؟
إن هذا بعيد .

هذا ، وقد عرض استاذنا الدكتور طه حسين لحب ابن أبي ربيعة في كتابه حديث
الاربعاء ج ٣ ص ١٤٣ فذكر أنه لم يكن يحب بعقله ولا بقلبه وإنما كان يحب بحسه ،
وبحسه ليس غير . ثم قرر أنه لم يكن يتصور المرأة إلا على أنها مكينة للرجل لا يستطيع
أن تعيش بدونه وأنه لم يكن يقصر هذه الصلة الجنسية على معناها المسمى وحده
وإن كان يريد بها وأسمه متناولة جميع أطراف الحياة

رابعاً — قد جاء في شعره ما يدل على أن النساء عرفن فيه التلوّن ،
عهدن منه التقلب . فمن ذلك قوله :

عجيباً ما عجبتُ مما لو أبصر ت خليلي ما دونه لعجبتنا
لقال الصفيّ فيم التجي ولما قد جفوتني وهجرتنا ؟
في بكاء ، فقلت ماذا الذي أبكك قالت فتاتها : ما فعلتنا
ولوت رأسها ضراراً وقالت إذ رأيتني : اخترت ذلك أنتما
حين آثرت بالمودة غيري وتناسيت وصلنا ومللتنا
قات لي قول مازح تستبينني بلسان مصدق إذ حلفتنا
عاشري فاخبري فمن شؤم جدّي وشقائي عوثيرت ثم أخبرتنا
فوجدناك إذ خبرنا ملولاً طرفاً لم تكن كما كنت قلتنا
وتجلّدت لي لتصرم جبلي بعد ما كنت رثه قد وصلتنا
فاذكر العهد بالمحبب والودّ الذي كان بيننا ثم اخنتنا (١)
ولعمرى ماذا بأول ما عاهدتني يا بن عمّ ثم غدرتنا
فخرامٌ عليّ أن لا تنال الدهر مني غير الذي كنت نلتنا (٢)
قلت مهلاً عفواً جميلاً فقالت لاوعيشي ولو رأيتك متاً

(١) المحصب : موضع رمى الجمار بمنى (٢) الظاهر أن « لا » زائدة في قوله :
فخرام عليّ أن لا تنال

ويقول في الحديث عن بعض مشوقاته :

قالت وقد جدّ رحيل بها والعين ان تطرف بها تسجّم
ان ينسنا الموت ويؤذن لنا نلقك ان عمرت بالموسم
إنك والله لذو ملة يصرفك الأذنى عن الأقدم

ويقول أيضا في الحديث عن بعضهن

قالت لا آتسة رداح عندها كالرّم في عقد الكثيب الأيهم
هذا الذي منح الحسان فؤاده وشركته في مخه والأعظم
علمي به والله يغفر ذنبيه فيما بدالى ذو هوى متقسم
طرف ينازعه الى الأذنى الهوى ويبت خلة ذى الوصال الأقدم
وقد كثر شعره فى هذا المعنى ، حتى لقد يذكر شتمهن له ، وعتبهن
عليه ، كقوله :

وقالت حات عن عهدى وودى جديد ما حيت لكم يسير
وظاوت الوشاة وزرت من لم يزررك وقد تبين لى الختور
ولم ترع الوداد كما رعينا وبنات منك لى عمداً أمور
ولم تجز القروض ولم تهبها وأنت لكل صالحة كفور
وقد أقر نفسه بالتلؤن ، وصرّح بالتقأب ، فى قوله

لعمرى لقد كان الفؤاد مسلماً صحيحاً فأسمى لا يطيق لها هجرا

فجازى ودوداً كان قبلك في الهوى دعولاً فقد أورثته السقم والضرا
أنى الحق أن حكمتكم فحكمتكم صواباً فما أخطأتم الظلم والكفرا
وأين هذا أيها السادة من قول مضر بن قرط المزني :

ولو تعلمين العلم أيقنت أنى ورب الهدايا المشعرات صدوق
أذود سوام الطرف عنك وماله إلى أحدٍ إلا عليك طريق
فإن كنت لما تخبريني فاسألى وبعض الرجال للرجال رموق
سلى هل قلانى من خليل صحبته وهل ذم رحلى فى الرحال رقيق؟
وهل يجتوى القوم الكرام صحابى اذا اغبرر مخشى الفجاج عميق

* * *

فياليت شعرى وقد بينت لكم كذبه في الحب — ماهى الميزة
التي سما بها شعره ، وسار بها ذكره ؟ وما هو السر في أن سحر شعره
النساء ، وآمن به الشعراء ؟